١٤ـ التكامل العلاجي ـ أو العلاج المتعدد الأنظمة

ينتهي البحث العلمي في كل اتجاه من اتجاهات المعالجة النفسية أو أنظمتها إلى بيان ما صمد بقوة من الاتجاه أمام تحدي البحث، وما بانت سلامته وجدواه، وإلى إظهار ما يكون دون ذلك بقليل أو كثير، من حيث مستوى الدقة والصحة والشروط العلمية الأخرى . والأمر الذي يغلب أن يحدث هو أن نواحي الاتجاه التي لا تكون الحقائق حولها كافية تؤخذ في مجال النقد ، والإشارة إلى ضرورة توافر المزيد من البحث حولها، والتعديل فيها .

إن وصفاً من هذا النوع يقدم مسوغاً مقبولاً لطرح سؤال كالتالي : هل من الممكن والمقبول تأليف نظام في المعالجة النفسية تتوافر فيه الشروط العلمية من درجة كافية ، ويضم ما أثبت البحث العلمي صلاحه في اتجاهات مختلفة تعتمد في المعالجة النفسية ؟ إن هذا السؤال هو المنطلق الرئيس في الاتجاه الانتقائي في المعالجة النفسية ، والاتجاه نفسه هو الجواب المقدم لمن يطرح السؤال .

الأصل في هذا الاتجاه الانتقائي التكاملي أنه لا يلزم نفسه بالانتماء إلى أي من النظم العلاجية السابقة، وأنه يتميز عنها من حيث هو نظام في النهار وتبدو منطلقاته عميقة وقوية في النقاط التالية :

١ - المنهج العلمي قاعدة رئيسة في التصدي لدراسة كل مشكلة نفسية، والتخطيط اللازم في معالجتها، وتنفيذ الاستراتيجية. وكما أن الدراسة تتجه نحو العوامل والنتائج، كذلك ينطلق التخطيط وتنفيذه من إدراك واضح وشامل للعوامل، وما نتج عنها من حالات سلوكية .

٢ - تقوم ما هو أفضل، وأكثر صحة في المعالجات النفسية المختلفة أساس يوفر قاعدة مناسبة في تأليف نظام معالجة نفسية يكون من درجة جدوى عالية، ومن مستوى علمي عال كذلك .

٣ - تقوم المعالجة الانتقائية على أساس الاختلاف بين الأفراد، والتنوع في الشروط المحيطة بهم، والنظر إلى كل شخص في تفرده من حيث تكونه وسلوكه وحالة اضطرابه . ويقوم تخطيط المعالجة الانتقائية على هذا الأساس.

والجمع بين النقطة الثالثة والنقطة الأولى ينتهي إلى أن المعالجة الانتقائية تقوم على أساس الدراسة العلمية المتكاملة لكل حالة من حيث هي حالة خاصة لفرد متميز .

٤ - تكون المعالجة الانتقائية موجهة بغرض واضح ومحدد هو تعديل سلوك المتعالج تعديلاً يكفي في الحكم عليه بأنه تغلب على اضطرابه، واتجه سلوكه نحو ما هو مقبول ومناسب .

ومن خلال هذه النقاط الأربع يمكن تحديد المعالجة النفسية الانتقائية بأنها التطبيق العملي لأسس وتقنيات تؤخذ من مجالات المعرفة العلمية المتوافرة في المعالجات النفسية المختلفة، بغرض رسم استراتيجية علاجية منظمة ومتكاملة تكون مناسبة للحالة التي وضعت لها . ويعني ذلك أن الظرف الواقعي للحالة التي تكون موضوع المعالجة، يوجه المعالج في رسم مخططه العلاجي رسماً يعتمد على حقائق من اتجاهات متنوعة في المعالجة، ويهدف لأن يكون متناسباً مع الحالة، ومجدياً في تناوله شروطها المختلفة بما يلزم من إجراءات المعالجة .

التنوع في محاولات صوغ معالجة نفسية انتقائية :

يبرز في مجالين السعي وراء معالجة نفسية انتقائية. مجال الممارسة، ومجال البحث العلمي والنظرية، والتفاعل بين المجالين قوي وقائم باستمرار . ظهرت إجراءات متعددة في عدد من المستشفيات والعيادات للجمع بين عدة تقنيات في المعالجة لتكون المعالجة متلائمة مع الحاجات في الحالات المتنوعة من الاضطرابات النفسية واتجهت الإجراءات مثلاً إلى الأطفال في لعبهم ليكونوا موضع ملاحظة، وموضع تفسير لما يقومون به. وموضع معالجة تستهدف تغيير سلوكهم استناداً إلى ما تم الحصول عليه من معارف عن طريق الملاحظة والتفسير . واتجهت الإجراءات مع الراشدين إلى الجمع بين تقنيات التحليل النفسي أو تعديل السلوك واعتماد الجماعة في اتخاذ المعالجة أغراضها، أو بين بعض مفاهيم التحليل النفسي وإنجازات التمثيل المسرحي، أو بين المعالجة الفردية والمعالجة الجماعية .

أما في مجال البحوث، فقد ظهر الإلحاح في الجامعات على تدريب طلاب العلاج النفسي تدريباً يمارسون فيه إجراءات معالجة مختلفة . وظهر فيما ينشر حول المعالجة عدد كبير من البحوث التي تربط بين تقنيات متنوعة في المعالجة تؤخذ من اتجاهات مختلفة . وبين أوسع ما وصلت إليه محاولات صوغ معالجة نفسية انتقائية متكاملة ما قام به «ثورن» Fredricke Thorne. فقد ظهر في كتاب له عن مبادئ إرشاد الشخصية : «إن القول بنظام متكامل للمعالجة النفسية يقوم على الانتقاء من بين عدة اتجاهات وما ظهر في كتابه عن نظام العناية النفسية بالحالة Psychological case Handing بطريق المعالجة الانتقائية. والمعروف من ثورن أنه ظل يعمل في البحث ضمن هذا الاتجاه بين عامي ١٩٣٥ – ١٩٧٠ .

وثمة محاولة أخرى للجمع بين أكثر من اتجاه ظهرت في الستينات، وراحت تتطور، ويجب أن تذكر هنا. تبدو هذه المحاولة واضحة المعالم في بحوث تستهدف الجمع بين عدد من تقنيات التحليل النفسي ومنطلقاته وتقنيات تعديل السلوك ومنطلقاته. ويدل فحص هذه المحاولات المختلفة على أنها تسير في طريقين : يوجه الطريق الأول القول بإمكان بناء نظام متكامل لمعالجة نفسية تقوم على الانتقاء، ولا ينتمي لأي من الأنظمة العلاجية السائدة، ويمثل ثورن هذا الطريق . أما الطريق الثاني فيوجهه القول بإمكان الجمع بين تقنيات يتم اختيارها من عدد من نظم المعالجات السائدة، ولكن هذا الجمع إنما يتم من خلال القول إن الناجم يمثل تطوراً في الاتجاه السابق المعتمد أكثر من غيره في عملية الانتقاء، أو يمثل منحى جديداً فيه . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في حالة اعتماد تعديل السلوك على الجماعة والتفاعل الذي يمكن أن يحصل داخلها في موقف علاجي جماعي.

مفاهيم في الأساس من نظام معالجة انتقائي :

يعتمد القول بنظام معالجة انتقائي على عدد من المفاهيم نقف فيما يلي عند ما هو أساس منها :

١ – الانتقاء في المعالجة النفسية نظام يبدو في بناء نظري يتألف من عناصر مختلفة مختارة من عدة مصادر أو نظريات، ويكون المنطلق في عملية الانتقاء تحديد ما

هو سليم ولازم من العناصر مما تنطوي عليه الأنظمة القائمة وجمع ذلك في وحدة متناسقة داخلياً تكون متناسبة مع السلوك الذي تمت ملاحظته . يكون النظام الجديد منفتحاً باستمرار لإدخال كل ما يجدُّ اكتشافه من الواقع، ويكون فكر المعالج منفتحاً كذلك تجاه مسائل التشخيص والمعالجة. لا يقف هذا النظام عند أي اتجاه معين بالذات لا يخرج عن تعليماته، بل يكون موضع التعديل باستمرار، ويكون العمل فيه تجريبياً موجهاً بما يقتضيه كل موقف علاجي بحيث تكون المحصلة دائماً متناسقة مع الواقع الحركي المتغير للشخص موضوع المعالجة . يكون النظام العلاجي الانتقائي بعيداً عن الانحياز لمبادئ معينة تأخذ بها نظرة معينة، ويكون مرناً وهو يطبق في حالات متنوعة ومختلفة .

٢ - برهن واقع المعالجات النفسية السائدة على أن الجدوى فيها ليست دائماً من درجة عالية في كل حالة من حالات الاضطراب النفسي . وإن كلاً منها يلاقي مقاومة في حالة أو أكثر من هذه الحالات، ومن هذه الجهة برهن واقع كل معالجة على أنها محدودة فيما تستطيع أن تشمله من حالات الاضطراب المتنوعة .

٣ - يدل الواقع على أن هناك تعقيداً في أية دراسة شاملة لصلاح أي اتجاه من بين الاتجاهات السائدة في المعالجة النفسية ما يزال يؤذي دراسة الجدوى في الاتجاهات. ويدل الواقع كذلك على أن تعقيداً مماثلاً يواجه دراسة صلاح الجمع بين اتجاهين أو ثلاثة حين لا يكون ذلك الجمع منطلقاً من مفهوم الانتقاء .

٤ - يدل تحليل حالات الاضطراب النفسي على أن في كل منها كثرة في العوامل المسببة، وأن هذه الكثرة تقتضي هي ذاتها، اللجوء إلى تنوع في الإجراء العلاجي للاضطراب لمواجهة هذه العوامل بما يلزم، وأن الانتقاء أفضل من أي طريق آخر في تلبية حاجات هذه المواجهة .

٥ - يدل واقع الاضطرابات النفسية على تعقد كبير فيها يجعل الأخذ بتصنيف لها والتقيد به أمراً يؤذي الإحاطة الكافية بكل أعراض الاضطراب وشروطه. ومن هنا يكون

من اللازم في نظام الانتقاء الانطلاق من مفهوم الأعراض التي تتميز بها كل حالة من حالات الاضطراب تكون موضع فحص ومعالجة.

٦ - تمر المعالجات النفسية المختلفة على تطور يعمل فيه التطور الذي يحيط بالمعارف العلمية بشكل عام، والمعارف النفسية بشكل خاص، والذي يظهر في مجال الإنتاج الصناعي، والانتقاء أكثر سلامة في مواجهة التطور في هذه المعالجات وأفضل في التلاؤم مع واقع حالات الاضطراب.

٧ - يعتمد كل اتجاه في المعالجة النفسية على نظرية عامة في علم النفس، والأمر نفسه صادق في حالة المعالجة النفسية الانتقائية. إنها تعتمد، هي ذاتها، على نظرية نفسية أساسها الدمج بين وقائع علمية متعددة والتأليف المتكامل بينها .